منزلة الشعر من التاريخ

(٦)

بعض اخبار ملوك العرب وملوك الامم الاخرى الذين اشتهروا عندهم

فمن اخبار الامم العربية ما جاء في شعر الاعشى ميمون

ألم تروا ارماً وعاداً افناهمُ الليلُ والنهارُ
وقبلهم غالت المنايا طسماً فلم ينجها حذارُ (١)
وحلَّ بالحيِّ من جديسٍ يوم من الشر مستطارُ
واهل جوّ اتت عليهم فافسدت عيشهم فباروا (٢)
وصبَّحتهم من الدواهي تائحة عقبها الدمارُ
ومرَّ دهر على ديار فهلكت جهرة وبارُ

وهو قول لا مراء بانهُ تاريخ اقوام انقرضوا وهم طسم وجديس وكانا قبيلتين من عاد وداعي هلاكهما هو ان الملك كان من بني طسم فجار في جديس واستباح المحرَّمات كما يؤيد ذلك ما جاء في شعر الشموس عميرة بنت غفار الجديسية فكبر ذلك على هذه الفتاة وقالت في امرها قصيدة اثارت في رؤوس رجال قبيلتها نخوةً فعمدوا الى الايقاع بطسم . واليك بعض ما قالت

فلو اننا كنَّا رجالاً وكنتمُ نساء لكنَّا لا نقيمُ على ذلّ
فيُعدًا وسحقاً للذي ليس مانعاً ويختال بيننا مشية الفحل (٣)
فموتوا كراماً او اميتوا عدوَّكم ودنّوا لنار الحرب بالحطب الجزلِ (٤)

ولم يلبث قومها ان مكروا بطسم ففتكوا بها شرَّ فتكة

وقال عدي بن زيدٍ في الاكاسرة واستطرد الى المناذرة

اين كسرى تاج الملوك بني سا سان ام اين قبلهُ سابورُ
واخو الحضر اذ بناهُ واذ دجـ لة تُجبَى اليهِ والخابورُ (٥)
شادهُ مرمرًا وجلَّلهُ تبـ رًا وللطير في ذراهُ وكورُ
وتذكَّر ربَّ الخورنق اذ أشـ رف يوماً والهدى تفكيرُ

(١) غالت اهلكت (٢) باروا هلكوا (٣) سحقاً اي حرقاً وبعداً . ويختال يتكبر ويتجبر
(٤) الحطب الجزل الغليظ العظيم منهُ . (٥) الجباية جمع الخراج

سرّهُ مالهُ وكثرة ما يـ ـملك والبحر معرضًا والسديرُ
فارعوى قلبهُ فقال وما غبـ ـطة شيء الى الممات يصيرُ (٦)

وقال زهير بن ابي سلمى وقد تطرّق الى ذكر النعمان وحادثة إغضابهِ كسرى ابرويز

ألم ترَ ان الله اهلك تبعًا واهلك لقمان بن عادٍ وعاديا
واهلك ذا القرنين من قبل ما ترى وفرعون اودى جندهُ والنجاشيا (٧)
ألم ترَ للنعمان كان بنجوةٍ من الشرّ لو أن امرءًا كان ناجيا
فعبر عنهُ رشد عشرين حجة من الدهر يوم واحدٌ كان غاديا

وقال النابغة الذبياني ذاكرًا بعض ملوك غسان

هذا غلامٌ حسنٌ وجههُ مستقبل الخير سريع التمامْ
للحارث الاكبر فالحارث الـ أعرج فالاصغر خير الانامْ
ثم لمندٍ ولمندٍ انتمى جدّات صدق وجدود كرامْ
خمسة آباءٍ هُمُ ما هُمُ همْ خير مَن يشرب ماء الغمامْ

وكان جذيمة بن مالك بن فهم الازدي المعروف بجذيمة الوضاح او الابرش من اشدّ ملوك العراق صولة وابعدهم مغارًا وقد صلى العمالقة المتاخمين في الجزيرة واعالي الفرات حربًا عوانًا ففتك بهم فتكًا ذريعًا وقتل ملكهم نخلفتهُ ابنتهُ واسمها الزبّاء فهذه احتالت على جذيمة حتى قبضت عليهِ فثأرت منهُ بوالدها . وكان لجذيمة وزير اسمهُ قصير بن سعد اللخمي فلم يزل يمكر بها حتى ثأر منها بمولاهُ وفي ذلك يقول عمرو بن عدي بن نصر اللخمي ابن اخت جذيمة وقد ذكر ما كان من مكاشفة خالهِ الملك وزراءهُ لمّا خطب الزباء قال

ألا يا ايها الغرّ المرجّى ألم تسمع بخطب الأوّلينا
دعا بالبقّة الوزراء يومًا جذيمة يستشير الناصحينا (٨)
فطاوع امرهم وعصى قصيرًا وكان يقول لو نفع اليقينا
ففاجأها وقد جمعت جموعًا على ابواب حصنٍ مصلتينا (٩)
وحكّت الحديد براهشيهِ فألقى قولها كذبًا ومينا (١٠)
فبات نساؤهُ ثكلاً عليهِ مع الابناء يعلين الانينا

(٦) ارعوى كفّ ورجع (٧) اودى هلك (٨) البقة موضع بالعراق قريب من الحيرة قيل انهُ على شاطئ الفرات (٩) مصلتين اي مصلتين السيوف واصلات السيف تجريدهُ
(١٠) الراهشان عرقان في باطن الذراع

فولّى انفهُ الموسى قصير ليخدعها وكان بهِ ضنينا
مخاتلة ابنة الريّان مكرًا فاذهل عقلها الواسي الرصينا
اتتها العيرُ تحمل ما دهاها رجالاً في المسوح مسوَّمينا (١)
ففاجأها على الانفاق عمرٌو بشكتهِ ولم تخشَ الكمينا (٢)
فجلّلها عنيق الحدّ عضبًا يشق بهِ الحواجب والجبينا

وهذه الابيات فضلاً عن انها تتضمّن رواية ما كان من امر جذيمة والزباء وقصير وعمرو تعرب عن امورٍ شتى منها (اولاً) ان ملوك العرب كانوا يستوزرون و يشاورون الوزراء واذا اختلف رأي الوزارة فالعمل برأي الفريق الاكبر (ثانيًا) ان العرب اجازوا الضرار اي تعدد الزوجات بدليل ان جذيمة اراد التزوج بالزباء وهو ذو زوجات (ثالثًا) علمنا منهُ ان ابا الزباء كان يسمى او يلقب بالريّان (رابعًا) افادنا ان الانثى كانت عند العرب ترث الملك كالذكر اذا لم يكن للملك نسلٌ من الذكور وهو نظام يجري عليهِ في هذا العصر المتمدّن بعض الامم الحائزة اعلى منزلة رفيعة من ادراك حقائق الهيئة الاجتماعية والعمل بموجبها

اما عمرو بن عدي قاتل هذه الابيات فهو ابن رقاش اخت جذيمة الابرش . ووالدهُ لم يكن من الملوك بل كان صنيعة الملك خالهِ ومتولي شرابهِ وكان جذيمة قد زوّجهُ اختهُ في حالة سكرهِ فلما افاق من نشوتهِ وعلم بما كان دخل الى خدر رقاش وقال لها

خبريني وانتِ غير كذوبِ اجرٍ زنيتِ ام بهجينِ
ام بعبدٍ فانت اهل لعبدٍ ام بدونٍ فانتِ اهل لدونِ

فاجابتهُ أختهُ

انتَ زوّجتني وما كنت ادري واتاني النساء للتزيينِ
ذاك من شربك المدامة صرفًا وتماديك في الصبا والمجونِ

وقول جذيمة المورد معنا يؤيد ما يروى عن انفة العرب من تزويج كرائمهم بغير الاكفاء كما جاء في شعر المهلهل عدي بن ربيعة التغلبي فانهُ لما أُجبر على تزويج احدى بناتهِ بغير كفء قال

لو بأبانَيْنِ جاء يخطبها ضُرّج ما انف خاطبٍ بدمِ (٣)

وانفة العرب من هذا الزواج كانت لا تخطى الاستياء . واما بعض الامم القديمة كالرومانيين واليونانيين فانا نجد في شرائعهم القضاء بقتل الرجل اذا كان من غمار الناس واقترن بفتاة تنتسب

(١) العير الابل تحمل الميرة . المسوَّمين المعلمين بعلامات يعرفون بها وهي من خصائص الشجعان
(٢) الشكة السلاح (٣) ابانان جبلان الواحد لبني اسد والاخر لبني فزارة

الى بيت نبيلٍ فالعرب اذن اعدل منهم حكومة واهدى وجهة الى محجة الصواب

وقد ولي عمرو بن عدي (ابن اخت جذيمة الوضاح) الامر دون بني خالهِ وانقادت لهُ العرب وخلَّف اريكة السلطة لبنيهِ واعقابهِ الذين يُسمون بآل محرّق واليهم يشير الاسود بن يعفر الدارمي بقولهِ

ماذا تؤمل بعد آل محرّقٍ تركوا منازلهم وبعد اياد
اهل الخورنق والسدير وبارقٍ والقصر ذي الشرفات من سنداد(٤)
نزلوا بانقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من اطوادِ
جرت الرياح على رسوم ديارهم فكأنهم كانوا على ميعادِ
ولقد غنوا فيها بانعم عيشةٍ في ظل ملك ثابت الاطوادِ(٥)
فاذا النعيم وكل ما يُلهى بهِ يوماً يصير الى بلى ونفادِ

وكانت العرب تعرف فرعون يوسف وتسميهِ الريَّان قال الاعشى ميمون

ولأنت أجودُ بالعطاء من ال ريَّان لما ضنَّ بالقطرِ

وفاعل ضنَّ محذوف لقرينة الشهرة تقديرهُ الافق . ومراد الاعشى في قولهِ الاشارة الى استحياء الناس في زمن القحط الذي انتاب بلاد مصر وسواها في زمن فرعون يوسف وهو اشهر من ان يذكر

وذكر النابغة الذبياني سليمان الحكيم في اثناء امتداحهِ النعمان بن المنذر اللخمي قال

ولا ارى فاعلاً في الناس يشبههُ ولا احاشي من الاقوام من احدِ
الاَّ سليمان اذ قال الالهُ لهُ قم في البريَّة فاحددها عن الفندِ(٦)
وجيّش الجنَّ اني قد اذنتُ لهم يبنون تدمرَ بالصفاح والعمُدِ

وكلام النابغة هذا يتضمن اموراً اولها عظامة الملك النعمان وهذا ما يجوز ان لا نثق بهِ لان الشعراء اذا عمدوا الى مدح ذوي التيجان أثنوا عليهم بصفاتهم وبغير صفاتهم وانما يؤخذ كلام الشاعر كأمرٍ تاريخي موثوق بهِ اذا كان الملك ميتاً ومدحهُ الشاعر على غير تزلفٍ الى احدٍ من اعقابهِ ولا لغاية خاصة كأن يكون ممن يتصل نسبهُ بهِ كما نجد في مقصورة ابن دريد في امتداح سيف بن ذي يزن . واما مدح الملك الحي فلا نثق بهِ الاَّ مع وجود القرائن الدالة على صدق تلك الاقوال

(٤) الخورنق اسم قصر بناهُ النعمان الاكبر والسدير اسم نهر وقيل اسم قصر . وبارق موضع قريب من الكوفة . وسنداد ايضاً موضع
(٥) غنى القوم في ديارهم اذا طال مقامهم فيها
(٦) حدّدها منعها والفند العجز وهنا بمعنى الفساد وفي البيت القلب اي وامنع الفند عنها

والامر الثاني عزو بناء تدمر الى سليمان الحكيم وهو يوافق ما جاء في التوراة ونصهُ حكذا "وبنى سليمان جازر وبيت حورون السفلى وبعلة وتدمر في البريَّة" ولكنَّ المؤرخين قد اجمعوا على ان تدمر اقدم عمرانًا من ايام سليمان. وقد صرَّح صاحب المرآة الوضيَّة الفيلسوف فان ديك ان مراد الكتاب هو ان سليمان حسَّنها وزاد في ابنيتها. قلتُ وعلى هذا الوجه يتخرَّج ما قالهُ احد مؤرخي العرب ان جبلة بن الايهم الغسَّاني بنى جلق اي دمشق وهي اقدم من عصره فكأنَّ المؤرخ اراد ان يبالغ في ما اجراهُ جبلة فقال بنى بدلاً من ان يقول حسَّن وزاد

وتحسين المدن القديمة حتى تكاد تنسب لحسنيها من صفات ذوي السلطة من المتقدمين كسليمان ومن المتأخرين كالخديوي توفيق الذي اولى مدينة حلوان من اهتمامهِ مايسوِّغ للمؤرخ ان ينسب بناءها اليهِ مع انها كانت قبلهُ بمئين من السنوات

والامر الثالث ممَّا يستفاد من كلام النابغة هو اعتقاد العرب بالجن وانهم هم الذين بنوا تدمر وهذا لا يطابق الكتاب المقدَّس اذا أُخذ على حقيقتهِ ولكنهُ اذا أُخذ على معنى مجازي اي استخدام مهرة فاقوا بمهارتهم حتى كادت قواهم العقلية تعدُّ غير بشرية صحَّ المعنى

وبهذه الفقرة كفاية لتأييد ما ذهبتُ اليهِ من امكان استحصال الامور التاريخية من الشعر وانتقل الى ايراد بعض ما لهُ منزلة خاصَّة من عادات العرب واخلاقهم وصنائعهم الى غير ذلك

امين ظاهر خير الله

عروسة النيل

الفصل الحادي والاربعون

زُجَّت باولين ومرضها في سجن منف سجن القتلة والمجرمين كأنَّها اتت امرًا ادَّا او ارتكبت جناية فظيعة فلما ارخى الليل سدولهُ استولى عليها القلق والقنوط وعبث بها اليأس حتى كاد الجنون يتولاَّها فاذا اطبقت اجفانها وران الكرى عليها علت ضجة المسجونين وجلبتهم في غرف السجن الأُخرى فافاقت مذعورة كمن يفيق من حلم مخيف وفيما هي كذلك سمعت وطأً اقدام في الغرفة التي فوق غرفتها فقالت في نفسها ترى من التعيس الذي جاء بهِ سوء بختهِ الى هذا المكان فان السفلة من المجرمين لا يسجنون في هذه الطبقة ونحو نصف الليل سمعت نقرًا على القيثارة وقع في نفسها احسن موقع حتى حسبتهُ بلسمًا لجراح نفسها فنهضت من فراشها ودنت من النافذة فالقت رأسها على حديد الشبَّاك واصغت فسمعت المسجونين يحادث السجَّان فراعها